حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد يناير – مارس ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الأدب المقارن والدراسات الثقافية المقارنة

يوسف محمد جابر إسكندر*
عبد الحسين شايع علي**

كلية الآداب – قسم اللغة العربية- جامعة بغداد- العراق
abdul.sh.ali81@gmail.com

المستخلص

استهدف البحث تسليط الضوء على أهم المشكلات والتحديات التي واجهها تخصص الأدب المقارن منذ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، في ما سمي بـ(أزمة الأدب المقارن)، ثم الأزمة الثانية في التسعينيات حتى واقع التخصص في وقتنا الراهن. وقد حلل البحث العوامل السياسية، والمعرفية، ونظرة المركزية الأوربية، ومشكلة الأحادية اللغوية في الولايات المتحدة لمعرفة أثرها في تلك المشكلات. وقد راجعت الأدبيات والبحوث الأساسية في هذا المجال في المصادر الأصلية. وتعقبت ظهور الدراسات الثقافية منذ ستينيات القرن العشرين وانتشارها في حقول الدراسات والعلوم الإنسانية، وتفاعل تلك العلوم فيما بينها وتداخل اختصاصاتها، وتحول المقارنة إلى أداة في تلك الحقول تعدت نطاق استعمالها في الأدب المقارن. هذا إضافة إلى الانتشار الذي اكتسبته المقاربات والمفاهيم النقدية لمابعد الحداثة، ومابعد الكولنيالية (دراسات مابعد الاستعمار)، وغيرها وإندماجها مع الدراسات الثقافية. ونتيجة لتلك المشكلات والأسئلة والتطورات والتفاعل الحي في حقول العلوم الإنسانية، كان أن طرحت (الدراسات الثقافية المقارنة) نفسها على صعيد النظرية والمنهج والتطبيق. وأشار البحث، طبقاً لأبحاث ستيفن توتوسي، إلى الفروق بين واقع التخصص في الغرب وطبيعة مشكلاته، وبين واقعه في الشرق، وفي العالم العربي تحديداً وواقع ازدهاره البحثي والعلمي المدهش، رغم قلة الاهتمام به على الصعيد المؤسساتي. مما يجعل الأفق أمامه مفتوحاً ويشجع للمزيد من البحث والتطبيق.

كلمات مفتاحية: الأدب المقارن، الدراسات الثقافية المقارنة، أزمة الأدب المقارن

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

في خضم ظروف ما سمي بالأزمة أو الأزمات التي اكتنفت تخصص الأدب المقارن، أصبح التخصص أمام أسئلة جدية وحاسمة، مرة أخرى، بخصوص وضعه بوصفه فرعاً علمياً مستقلاً أو برنامجاً دراسياً في أقسام اللغات في عديد من الجامعات الأمريكية والأوربية منذ صدور (تقرير الجمعية الأمريكية للأدب المقارن)، الذي عُرف بتقرير بيرنهايمر ١٩٩٣. مما شكل، ولبعض الوقت، ضغطاً أكبر بكثير مما كان يواجهه التخصص فعلياً لسنوات عديدة فيما مضى، خصوصاً وأن التقرير، الذي فتح كل تلك الأسئلة، قد جاء وثيقة رسمية صادرةً عن الجمعية الأمريكية للأدب المقارن. ونتيجة لذلك بدأ مسار من الإجراءات اتصف أغلبها بدمج أنشطة التخصص في حقول دراسية جديدة مثل: الدراسات الثقافية، أو دراسات المناطق، أو حتى دراسات الترجمة. ولم تكن تلك المساعي حلولاً مناسبة بقدر ما كانت خضوعاً سلبياً لواقع أزمةٍ تتهرب منها – علينا أن نذكر بأن أزمة التخصص هذه تنطبق على الولايات المتحدة وكندا وبلدان شمال أوربا، وليس الأمر كذلك بالنسبة لبقية المناطق، كما سيتضح لاحقاً -. وعليه فهي استجابات تكرس النتائج السلبية لممارسات وضغوط جاءت في سياق نوع من التخلي ونفض اليد، أو التطابق في أحيان كثيرة مع التوجهات الرسمية في الكليات الإنسانية في البلدان المشار إليها.

ولكن هل الصورة قاتمة لدرجة كبيرة؟ وهل الأدب المقارن أصبح ديناصوراً؟ وهل أحدث فروع الدراسة الأدبية محكوم عليه بأن يواجه قضية وجوده؟ هذا ما ستجيب عليه الصفحات القادمة.

لقد عُرف عن الأدب المقارن أنه تخصص دائم السؤال حول منهجياته وأوضاعه وحتى تعريفه. تقول سونيا ستويمنسكا إلزيسر: "من الصعوبة بمكان تخيل أيّ تخصص أكاديمي آخر يخضع هويته ووضعه للتساؤل باستمرار كما فعل ويفعل الأدب المقارن. وهذا ربما لأن الأدب المقارن يحتاج لتوحيد الانتباه الدقيق للتفاصيل النموذجية للدراسات الأدبية مع ضرورة النظرة المركبة للعالم".[١] إن هذه النظرة المركبة للعالم هي جزء من الأدب المقارن من الأساس، وفي ذات طبيعته القائمة على الكشف عن العلاقات في ميادين عمله العابرة للثقافات وتعدديته اللغوية والثقافية. فقد شكل الأخذ من التخصصات الأخرى وتوظيفها سمة من سماته. ولذا هو يتأثر بتأثر العلاقات في موضوعات دراساته. ولهذا السبب وفي أوقات كان يُنظر فيها إلى الحدود الفاصلة بين التخصصات بهالة من القداسة، كان التساؤل لا ينفك يُطرح حول الأدب المقارن من هذه الزاوية. وعن هذا يقول ستيفن توتوسي دي زيبتنك: "... ليس سراً أن تخصص الأدب المقارن له تاريخ من عدم الاستقرار والصراع فيما يخصّ النقص في تعريفه وإطاره النظري والمنهجي. هذه الثغرات – التي عُرفت في التخصص منذ نشأته في القرن التاسع عشر – هي نتيجة لاستعارة هذا التخصص من التخصصات الأخرى في تحليله للأدب".[٢] والطريف أن ما كان يُؤخذُ على الأدب المقارن قد أصبح اليوم ضرورة من ضرورات البحث في العلوم الإنسانية كافة، فيما يسمى بتداخل الاختصاصات. وقد أثبت المسار الفعلي لتطور الأدب المقارن أنه تخصص يتميز بالحيوية وذو صلة بالواقع الاجتماعي من خلال تأثره بالمتغيرات وتكيفه معها، على عكس بعض الادعاءات التي تتحدث عن غياب هذه الصلة في بعض التخصصات الإنسانية.

تجدر الإشارة إلى أن عوامل السياسة، ويتبعها التمويل بطبيعة الحال، ليست بعيدة عن مشهد هذه المشكلات التي تحيط بالإنسانيات. فالضغوط، بدافع من المنافع أو بهدف التوجيه غير المباشر، تعمل بطرق مختلفة وبآليات معقدة، إذ نجدُ "أن عالم اليوم المسيس والقائم على مبدأ الربح عمل غالباً على دفع الدراسات الإنسانية إلى هامش المشاركة الاجتماعية الحية".[٣] وإن تأثر الأدب المقارن بالعامل السياسي ومختلف العوامل المؤثرة الاقتصادية والثقافية ليست أمراً خافياً.

وهنا نذكر بكل من مدخلي رينيه ويليك وتشارلز بيرنهايمر، وإشارتيهما للعامل السياسي لتأكيد هذا التأثير بما لا يدع مجالاً للشك. فهذا رينيه ويليك، في مقاله الشهير (أزمة الأدب المقارن) أواخر خمسينيات القرن العشرين، يكتب: "يعاني العالم (أو عالمنا على الأصح) من أزمة لازمته منذ سنة ١٩١٤ على الأقل، كما يعاني البحث الأدبي، بطرقه الصامتة التي تقل عنفاً عن غيرها، من صراع بين المناهج منذ حوالي ذلك الوقت تقريباً".[٤] وواضحة هي الإشارة إلى الصراع المتمثل بالحروب العالمية وغيرها من النزاعات بدءاً بالحرب العالمية الأولى التي اندلعت في السنة التي يذكرها ويليك. ولكن هذا أحد العوامل المباشرة التي دار حولها الخلاف، في حين أن العامل الأهم يكمن في الظروف والبيئة الفكرية والثقافية التي نشأ فيها هذا الحقل، ثم ما طرأ من تغيرات عليها خلال أكثر من قرن من الزمان، استدعت تلك المراجعة وبزوغ أكثر من توجه ومنهجية جديدة فيه، لعل أهمها في ذلك الحين ظهور المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن إلى جانب المدرسة الفرنسية التي كانت تهيمن على التخصص نظرياً ومنهجياً قبل هذا التطور.

أما في ما سمي بالأزمة الثانية للأدب المقارن في تسعينيات القرن العشرين والتي اندلعت مع تقرير بيرنهايمر، فإننا نراه، أيضاً، يشير صراحة إلى دور العامل السياسي في المشكلة. إذ يقول ذلك التقرير: "... السياقات التاريخية، والثقافية، والسياسية التي يعمل... المقارنون نفسهم ضمن إطارها الآن، والمشكلات التي يطرحها الكثير منهم، قد تغيرت بشكل ملحوظ عن زمن دراستهم التخصصية، بحيث إن الممارسات الفعلية في هذا الحقل قد حولتها".[٥] ويبدو واضحاً منذ مستهل التقرير الحديث عن التغيرات، ومن ضمنها السياسية أيضاً. يجب أن ننوه إلى أن هذا التقرير جاء في سياق التغيرات التاريخية الكبيرة لنهاية عقد الثمانينيات وبداية التسعينيات للقرن العشرين. وهي مرحلة انهيار الاتحاد السوفييتي وبزوغ النظام العالمي الجديد لأميركا ونظام الأحادية القطبية. ولايمكننا، بطبيعة الحال، أن نعزو كل المعضلات التي واجهت التخصص إلى العوامل السياسية وحدها، ولكن التوجه السياسي يشكل موجهاً مهماً للاستثمار في حقول التعليم والبحث الجامعي في الغرب، وفي أميركا على وجه الخصوص. وهو أمر لا يمكن إغفاله لما له من أثر في زيادة أو تراجع الدعم لهذا التخصص أو ذاك، أو في تعيين أولوياته.

ويمكن تعقب مجموعة من التغيرات والتطورات الخارجية، وأخرى في ذات الاختصاص، تضافرت لتؤدي إلى دفعه نحو إعادة تشكيل نفسه وتموضعه على صعيد النظرية والمنهج والتطبيق. "من ناحية الوجود المؤسساتي، اكتسب التخصص انتشاراً واسعاً في الولايات المتحدة وفي أوربا (وإن كان في الأخيرة بدرجة أقل)، ثم عانى في كلتا المنطقتين حضوراً متراجعاً منذ الاهتمام بالنظرية الأدبية والثقافية وتبنيهما في أقسام اللغة الانكليزية، وكذلك نظراً للمركزية الأوربية الراسخة في الأدب المقارن. إن العيب الآخر له يبقى في بنيته (النظرية والتطبيقية) القائمة على الآداب القومية في الوقت الذي اكتسب فيه النموذج العالمي انتشاراً في الكثير من الاختصاصات والمقاربات".[٦] إن المقصود بالوجود المؤسساتي هو تشكل الحقل العلمي وترسيخه بشكل أقسام وفروع علمية جامعية مستقلة. فمن هذه الناحية مرّ التخصص بمرحلة صعود في أمريكا الشمالية وأوربا ثم أعقبتها مرحلة تراجع. ففضلاً عن إيلاء الاهتمام بالنظرية الادبية والثقافية في أقسام اللغة الانكليزية وأخذها حيزاً على حساب الأدب المقارن، أصبحت نزعة المركزية الأوربية الراسخة في التخصص، في الغرب، تركة ثقيلة لا يحتمل الكثير من جيل المقارنيين الشباب الاتصاف بها، ممن تأثروا بالأفكار الجديدة لما بعد الحداثة ونقدها لمسلمات الفكر الحداثي الأوربي.

من المعروف أن هيمنة الأدب القومي على الأدب المقارن شكلت عاملاً محدداً لحركة التخصص وانطلاقه في رحاب العالمية. فقد نشأ الأدب المقارن وبقي في الكثير من الجامعات بوصفه حقلاً دراسياً أو برنامجاً في إطار أقسام اللغات القومية. وهذا أصبح منذ تسعينيات القرن العشرين يتعارض مع النزعة العالمية في الدراسات الإنسانية التي انتشرت تحت تأثير العولمة ووسائل الانفتاح والإتصال الحديثة. وقد وصف هون ساسي، بشكل دقيق، هذه الحال في تقريره للجمعية الأمريكية للأدب المقارن لعام ٢٠٠٣، قائلاً هو: "بتعبير إداري، ما بعد تخصص أو حتى تخصص مضاد، مؤسس على تقاليد التعلم في اللغات والآداب القومية، غير منفصل عنها ولكنه مختلف عنها في أهدافه. يحتل الطابق الثاني من دون أن يكون له سلمه الخاص: فطريقه الوحيد للوصول إلى هناك هو من خلال لغة قومية".[٧]

ومثلما دفعت هذه الظروف الأدبَ المقارن إلى حيز التساؤل وإعادة النظر –على الأقل في شمال أمريكا وأوربا –فإنها وضعته أمام آفاق التجديد وإمكانية التخلص من عيوب تركة النزعة القومية والمركزية الغربية. تحمل الدراسات الثقافية المقارنة في ذاتها لبنات البناء المناقض لنزعات التقوقع تلك. ولم يكن نابعاً من فراغ أن تمددت الدراسات الثقافية متزامنة مع صعود اتجاهات ما بعد الحداثة الناقدة للفكر الغربي. إن مسار صعود الدراسات الثقافية وانتشار المقارنة والتوظيف الواسع لمفهوم تداخل الاختصاصات في العلوم الإنسانية مهدت الطريق أمام ولادة (الدراسات الثقافية المقارنة). يعرض كوجي كاواموتو (Koji Kawamoto)، رئيس الرابطة العالمية للأدب المقارن عام ٢٠٠١، لأزمة جديدة في الأدب المقارن، محدداً طبيعتها في مصطلح (الأدب)، بعد أن كانت الأولى أواخر الخمسينيات تدور حول مصطلح (المقارن)، قائلاً: "إنّ الأزمة التي نعرفها اليوم على عكس الأزمة السابقة، تكمن في مصطلح (الأدب) في الأدب المقارن. فقد بدأت منذ عشر سنوات... حيث راحت الدراسات الثقافية تحوز قصب السبق، وبدت الظروف كما لو كانت قد انقلبت رأساً على عقب. وربما أمكننا أن نعد هذا، من منظور واحد، المجرى الطبيعي للأمور، كرد فعل لنقص الاهتمام في الدراسات الثقافية والأدبية بالمنظورات والمواقف المختلفة لكثير من الجماعات الإنسانية المتفرعة. وانطلاقاً من هذا المنظور، فإن الشعبية الحالية للدراسات الثقافية يجب النظر إليها بصفة عامة كمساعدة في موضعها لاولئك الذين يمارسون نسق الأدب المقارن".[٨]

برأينا أن ما يسمى بأزمة الأدب المقارن، في حقيقتها، لا تكمن في التطورات والتغيرات الحاصلة والتساؤلات المطروحة أمام التخصص، إنما تكمن في طبيعة التعامل مع هذه التحولات وفي كيفية الاستجابة لها. تكمن في كلتا النظرتين اللتين أشار البحث إليهما فيما تقدم وما ينتج عنهما من مواقف: النظرة المتفائلة الجامدة التي تتجاهل التحديات، والأخرى التي تتحاشى المشكلة بتركها وإدارة الظهر لها. على أن هناك من ينظر إلى الأمر بوصفه صيرورة طبيعية ستقود في ذاتها إلى نتائجها. يقول روبرت وينينغر: "لربما من المنصف القول إن الأدب المقارن ليس في تراجع ولا هو في صعود ولكن ببساطة هو يتغير ويتكيف مع الظروف والسياقات، المؤسسية، والتواصلية، والنظرية، والمنهجية، والتخصصية، والأدبية".[٩] إنه في جانب منه رأي صحيح من حيث مسألة التكيف والتفاعل مع الظروف والسياقات، بيد أن تفاعل المهتمين والمتخصصين هو أيضاً أمر حاسم. في المجتمع تجري الأمور على نحو يختلف عن قوانين الطبيعة. فمركز المجتمع هو الإنسان وإن أمكن إغفال أي دور آخر، لا يمكن معه إغفال دوره في العلوم الإنسانية. وأفضل مثال على هذا، هو العمل الدءوب الذي قام به الدكتور ستيفن توتوسي دي زيبتنك على الأصعدة النظرية والعملية الجامعية باتجاه توضيح المشكلات والتحديات، ووضع الأسس النظرية، والعمل على تأسيس أقسام ومجلات، وتحرير الكتب ونشر البحوث. وقد كانت له المساهمة الأساسية في وضع أسس (الدراسات الثقافية المقارنة). يعرف دي زيبتنك الدراسات الثقافية المقارنة بأنها "حقل دراسة حيث تندمج مبادئ معينة من تخصص

الأدب المقارن مع مبادئ معينة لحقل الدراسات الثقافية، ما يعني أن دراسة الثقافة والنتاجات الثقافية –متضمنة، على سبيل المثال لا الحصر، الأدب، التواصل، الوسائط، الفن، وغيرها- تُؤدى ببناء سياقي وعلائقي وبتعددية المناهج والمقاربات، وتداخل الاختصاصات، وعندما يتطلب الأمر، تضم مجموعات عمل".[١٠] إذن الدراسات الثقافية المقارنة تدمج بين مبادئ معينة تحديداً ومنتقاة من تخصص الأدب المقارن مع أخرى معينة ومنتقاة من الدراسات الثقافية. وهناك تشديد ضمني في كلمة (معينة) وذلك تجنباً لأية احتمالية لأن تتسرب بعض المبادئ إلى الدراسات الثقافية المقارنة، تلك المباديء التي عُرفت تاريخياً بوصفها جزءاً من الأدب المقارن وطالها نقد شديد، أهمها نظرة المركزية الأوربية-الغربية، والتوجه ذو النزعة القومية في دراسة الأدب. هذا فضلاً عن مبدأ التأثير والتأثر وكل ما له صلة بإثبات تفوق أمة أو ثقافة على أخرى، إلى جانب النخبوية في التعامل مع الأعمال الأدبية والثقافية من حيث رفعتها من عدمها، في ما كان سائداً من تمييز بين الأدب والثقافة الرفيعين وبين الأدب والثقافة الشعبيين.[١١] فبعض تلك المبادئ كإثبات التفوق عن طريق التأثير كان موضع انتقاد مبكر منذ خمسينيات القرن العشرين، والآخر مما يوجد تقليدياً بشكل ممارسة راسخة في الأدب المقارن يتعارض ومبادئ الدراسات الثقافية المقارنة، كالنظرة التي تضع الأدب والثقافة الأوربيين معياراً لبقية الثقافات، مما يقود إلى التقليل من شأن الآداب والثقافات الأخرى وخصوصية نشأتها وتطورها.

ورغم أن الأدب المقارن في صورته الأمريكية نشأ تحت هيمنة المناهج النصية بتأثير صعود النقد الجديد هناك، وتأثر بها إلى حد بعيد، ورغم أن الدراسات الثقافية المقارنة تهتم بالسياق وجوانبه المختلفة الذي يتم إنتاج الأعمال الادبية والثقافية فيه، إلا أنها لا ترفض المقاربات النصية والشكلية. على العكس هي تهتم بضرورة التنوع في المنهجيات وتداخل الاختصاصات. يقول تقرير بيرنهايمر: "إن اقتراحاتنا لتوسيع حقل الدراسة... لا يعني أن على الدراسة المقارنة أن تهجر التحليلات المعمقة للخصائص البلاغية، والعروضية، والخصائص الشكلية الأخرى، بل يجب أن تُؤخذ بنظر الاعتبار القراءات النصية الدقيقة إلى جانب السياقات الايديولوجية، والثقافية، والمؤسساتية التي يتم فيها إنتاج معانيها".[١٢]

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى الأثر الذي تركته نزعة التطرف في الاعتماد على المناهج النصية دون غيرها في النقد الأدبي والأدب المقارن في الولايات المتحدة تحديداً في الخمسينيات والستينيات، الأمر الذي أدى إلى الحاجة لمقاربات أخرى تتماشى مع المستجدات الاجتماعية والثقافية تمثلت ببروز التاريخانية الجديدة والدراسات الثقافية، ولاحقاً الدراسات الثقافية المقارنة. تقول سوزان باسنيت بهذا الصدد: "هذا التجاهل المتعمد للقضايا الاجتماعية الاقتصادية أو القضايا السياسية هو الذي أحدث في النهاية رد فعل، وأدى إلى مولد التاريخية الجديدة –New Historicism– في النقد الأدبي في أمريكا الشمالية في السبعينيات والثمانينيات، وإن محاولة علماء المقارنة أن يقارنوا نصوصاً عبر الحدود الثقافية متجاهلين بعض القضايا الأساسية كانت أشبه بمحاولة ماهرة للمشي على الحبال".[١٣]

ومن المسائل التي دار حولها الجدل في الولايات المتحدة بشكل خاص ولوقت طويل مسألة الأحادية اللغوية، إذ إن الدراسة المقارنة للآداب الأخرى غير الانكليزية جرى فيها تساهل فيما يخص قراءة الأعمال بلغاتها الأصلية. بيد أن هذا التوجه كان يلقى بعض المقاومة من قبل المتخصصين. وحتى من دعوا إلى التغيير وتحديث الأدب المقارن كانوا يرغبون بالتخفيف من هذا الشرط والسماح بالاعتماد على النصوص المترجمة. فتقرير بيرنهايمر في دفاعه عن هذا التوجه منتقداً ما جاء في تقرير غرين السابق ١٩٧٥ يقول: "إن أكبر تهديد ملموس هو التهديد الموجه إلى الصورة النخبوية للأدب المقارن، وهي الصورة المتمثلة بقراءة وتعليم النتاجات

الأجنبية بلغاتها الأصلية. فغرين ينتقد الاستعمال المتزايد للترجمات من قبل الأساتذة في فصول الأدب العالمي من الذين لا يجيدون اللغات الأجنبية. إن التعاطي مع الترجمات أدين في كلٍّ من تقريري ليفين وغرين..."."[١٤] هكذا يعد تقرير بيرنهايمر مبدأ قراءة النصوص بلغاتها الأصلية نوعاً من النخبوية يتصف بها الأدب المقارن حسب زعمه. إلا أن هذا في جوهره ليس من النخبوية في شيء. فهذه خاصية متميزة ومحمودة في الأدب المقارن. وبرأينا تتبع الدعوة إلى الاعتماد على الترجمات في الولايات المتحدة من مبدأ سياسي يخص تلك البلاد، وهو ما يُعرف بالبوتقة. وتعني أن الولايات المتحدة، ذات التنوع الكبير في أصول مكونات مجتمعها بوصفها مجتمع مهاجرين، تنهج نهجاً يميل إلى صهر تلك الثقافات في ثقافة أمريكية واحدة وبلغة واحدة. هذا هو السبب الأساس لما يسمى بالأحادية اللغوية، وليس كما يسعى التقرير إرجاع التعددية اللغوية إلى الطابع النخبوي والمركزية الأوربية في الأدب المقارن. كذلك في الوقت الذي يدعو فيه واضعو التقرير إلى التعددية الثقافية نراهم يتمسكون باللغة الانكليزية دون اللغات الأخرى، رغم التشجيع الخجول الوارد في التقرير الذي يحث الطلبة على اكتساب المهارات في اللغات الأخرى وتعلمها بما فيها العربية.

في الطرف الآخر نرى الكثيرين ممن يتبنون الدعوة إلى تجديد وتحديث الأدب المقارن، في الوقت نفسه، يتمسكون بالتعددية اللغوية والثقافية في الأدب المقارن والدراسات الثقافية المقارنة. ورأي توتوسي دي زيبتنك قاطع في هذا المجال، وفي معظم أبحاثه يبرز إصراره على ضرورة ترحيل خاصية التعددية اللغوية للأدب المقارن إلى الدراسات الثقافية المقارنة. ها هو يكتب: "برأيي إن البصمة المهمة للأدب المقارن، والتي يجب التأكيد عليها، هي المعرفة باللغات الأجنبية مترافقة مع العقيدة الضامة للفرع المعرفي (التداخل الثقافي) ومرتبطة بالنظرية والمنهجية الدقيقة".[١٥] ودي زيبتنك يرى أن فائدة معرفة اللغة الأجنبية ليست مقتصرة على قراءة الأعمال بلغاتها الأصلية حسب، بل هي، عنده، من الضروري أن تقترن بعقيدة في التخصص تتجه نحو الاهتمام بالآخر وفهم ثقافته. وفي هذا المعنى يقول: "برأيي، إن الملمح المميز للأدب المقارن لهو تراكمي، ويتضمن عوامل مترابطة مثل المعرفة بلغات أجنبية، مع ايديولوجية شاملة هي (الاهتمام بالآخرية)، ومستنداً إلى منهجية دقيقة".[١٦] ومن بين المدافعين بشدة عن بقاء الأدب المقارن والدراسات المقارنة ميداناً للتعددية اللغوية والثقافية تبرز ماري لويس برات بقولها: "على الأدب المقارن أن يبقى موطناً لمتعددي اللغات، فتعددية اللغات يجب أن تبقى بطاقته الرابحة... ويبدو أن الوقت الآن مناسب لقلب تشبث الولايات المتحدة الأمريكية بشكل أعمى بالأحادية اللغوية".[١٧]

مع كل ذلك فإن الأدب المقارن بالرغم من تعرضه لتلك الضغوط، في الولايات المتحدة وأوربا، على صعيد وجوده المؤسساتي (تشكله في أقسام وفروع علمية)، لم ينحسر نشاطه العلمي والبحثي ولم تهتز صورته بوصفه حقلاً علمياً. على العكس اتسع النشاط العلمي للأدب المقارن وانتشرت بعض منهجياته لتشمل العلوم الإنسانية كافة وازداد كم ونوع الدراسات المقارنة واغتنت بمقاربات جديدة بتأثير انتشار الدراسات الثقافية حتى قبل وضع أسس الدراسات الثقافية المقارنة. "إن الأدب المقارن بوصفه تخصصاً، وبينما يصارع في ما يخصّ وجوده المؤسساتي، يبقى حقلاً مستقراً في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا (وحتى في انكلترا حيث لم يكن للتخصص حضور قوي، فقد اكتسب اهتماماً مؤخراً)، وفي أمريكا اللاتينية والكثير من بلدان أوربا".[١٨] حتى مع أكثر الآراء تطرفاً فيما يخص وضع الأدب المقارن الصادرة عن سبيفاك، نراها لا تنفك تتحدث في ثنايا كتابها عن ضرورة أدب مقارن جديد وتوجه سهامها نحو ما تسميه الأدب المقارن القديم. فهذا روبرت وينينغر في تعليقه على مقولة سبيفاك حول لفظ الأدب المقارن لأنفاسه الأخيرة يوضح قائلاً: "من دون شك، سبيفاك لا تشير إلى الأدب المقارن بشكل عام، إنما بالأحرى إلى ما تسميه الأدب المقارن القديم بالتعارض مع 'الأدب المقارن

الجديد' الذي طرحته في كتابها الأخير [موت تخصص، ٢٠٠٣]".[١٩] ووينينغر محق في ملاحظته التي تتفق مع رأي توتوسي دي زيبتنك الذي أشار إلى اتفاق الكثير من آراء سبيفاك مع آرائه ، إنما اعتراضه هو على عنوان كتابها المستفز حسب وصفه.

من نافل القول إن الأدب المقارن، وبحكم طبيعته التعددية وتوظيفه للتخصصات الأخرى، وقبل أي تخصص آخر، كان وما يزال ميداناً رحباً لتضايف التخصصات والتعابر فيما بينها، وكان وما يزال نشاطاً يوفر أرضاً لتفاعلها من أجل فهم أعمق لموضوعاته التي اتسمت بالتنوع والتعدد الثقافي واللغوي. "إن الأدب المقارن، وضمن أي نسق – مع أو من دون الدراسات الثقافية، مع أو من دون دراسات المناطق، مع أو من دون دراسات الترجمة – يوفر رابطاً بين الاختصاصات، سواء كانت هذه متموضعة في الإنسانيات، أو الآداب والفنون، أو العلوم. إنه فضاء حيث يمكن لهذه الاختصاصات وعلى نحو مبدع أن تمتزج وتتقاطع، تتكافل، وتتضافر، وتتبادل، وتتفاوض وتتفق من دون التسبب الفوري بخطر الإقصاء والإبعاد لمن يمارس عمل العبور بين التخصصات".[٢٠]

لقد بينا فيما سبق أن المشكلات التي واجهت تخصص الأدب المقارن هي مقتصرة على الولايات المتحدة وأوربا تحديداً، بينما يشهد التخصص انتعاشاً في بقية المناطق. ولكن يجب الانتباه إلى التصورات النمطية السائدة في الغرب. تلك التصورات التي تفسر أي تطور في المناطق والبلدان غير الغربية في أي حقل من الحقول على أنه لحاق بالغرب، أو لحاق متأخر وبشكل آلي. هذا ربما ينطبق على الكثير من الظواهر الأدبية والفنية، ولكن فيما يخص هذا التطور الملحوظ للأدب المقارن في ما يسمى مناطق الأطراف هو ليس لحاقاً بالغرب. ينبه دي زيبتنك عن دقة ملاحظة وبحث معمق بقوله: "نحن هنا نحذر من مقاربة 'الفترات' لقياس الانتشار الملحوظ في ما يسمى مناطق 'الأطراف'. بعبارة أخرى، نعني ذلك الاقتراح القائل بأن هذا التقدم يجب أن يُنظر إليه بوصفه نوعاً من 'اللحاق' بالغرب، مثلما يُنظر، على سبيل المثال، للحداثة التي ظهرت في مناطق 'الأطراف' بعد أوربا (وحتى في نطاق أوربا نفسها ظهرت لاحقاً في أوربا الشرقية متبعة خطى أوربا الغربية). إنّ مثل هذه النظرة، القائمة على مفهوم المركزية الأوربية المذكور وممارسة الأدب المقارن، لن تكون مفاجئة".[٢١] وإنه لأمر مفهموم إذا اخذنا بنظر الاعتبار الطابع المابعد كولنيالي للآداب المقارنة، خصوصاً، في آسيا (الهند تحديداً)، والصين والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية. هذا الطابع المنتقد للغرب الاستعماري والذي استهدف تفكيك بناه الفكرية والثقافية الاستعمارية المهيمنة. ومن قلب هذا التحرك تقوى عود الدراسات الثقافية والمقارنة ودراسات ما بعد الكولنيالية على يد مفكرين من امثال إدوارد سعيد، وهومي بابا، وغاياتري سبيفاك وغيرهم.

ومما يؤكد أن مصاعب الأدب المقارن في مناطق 'الأطراف' مختلفة عنها في الولايات المتحدة وأوربا، تلك الدراسة المبهرة بنتائجها، والمعززة بالبيبلوغرافيا التي أنجزها ستيفن توتوسي دي زيبتنك، إذ يجد في دراسته أن ثاني أكبر عدد من الكتب الصادرة في الأدب المقارن منذ القرن التاسع عشر وحتى عام ٢٠١٢ قد صدرت باللغة العربية بعد الانكليزية. وحتى الفارق بينهما ضئيل جداً. يذكر أن: "الملفت للنظر هو عدد الكتب في الأدب المقارن باللغة العربية: وإذا ما قيسَ بعدد الكتب، فإن كتب الأدب المقارن بالعربية تأتي بالمرتبة الثانية بعد عدد الكتب بالانكليزية. وهذا أكثر إثارة للاهتمام لأنه يتواجد قسمان/برنامجان للأدب المقارن لا أكثر في البلدان التي تتحدث العربية وهذا يعني أن التخصص لم يكتسب حضوراً مؤسساتياً جامعياً".[٢٢] فقد صدر (٨٨) كتاباً في الأدب المقارن بالانكليزية من القرن التاسع عشر وحتى ٢٠١٢، بينما صدر (٨٤) كتاباً في الأدب المقارن بالعربية لنفس الفترة.

إذا أخذنا التفوق العددي الكبير للناطقين بالانكليزية قياساً للناطقين بالعربية والتفوق الحضاري وفارق عدد الأقسام المتخصصة في هذا المجال لصالح اللغة الانكليزية، فإن النتيجة مدهشة. فليس هناك سوى قسمين مستقلين للأدب المقارن في العالم العربي، بينما كانت هناك مئات الأقسام في الجامعات الأمريكية وغيرها ممن لغتها هي اللغة الانكليزية. إن الأدب المقارن في الجامعات العربية هو حقل دراسة ضمن أقسام اللغة العربية واللغات الأجنبية، ومع ذلك يسجل نشاطاً علمياً ملحوظاً دون ضجيج ودونما أي اهتمام.

من الميزات الأخرى في الأدب المقارن في العالم العربي وبقية بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية أنه لا يعاني من تلبس المركزية الأوربية-الغربية فيه. عندنا في الجامعات العربية يتميز الأدب المقارن بتعدديته اللغوية إلى درجة كبيرة، فضلاً عن حيويته وقدرته على هضم المستجدات والمكتسبات في العلوم الإنسانية الأخرى بهدوء.

Abstract

crisis of comparative and comparative cultural studies

By Yousef Muhammed

And Abd El- Hussien Shaiaa

This paper targeted the major problems and challenges the discipline of comparative literature was facing since the beginning of the second half of twentieth century, in the so called crisis of comparative literature, then the second crisis in the 1990s, until the present. I discussed the political and epistemological factors, Eurocentrism, and the problem of Monolingualism to reveal and explain their role in the said problems. The paper reviewed the main sources on the subject. This paper pursued the emergence and gaining presence of cultural studies in the human sciences since 1960s, then the interaction and interdisciplinarity of those fields, also the comparison shift to a tool in the human sciences. In addition, I discussed the integration of critical approaches, postmodernism, postcolonialism with the cultural studies. And as a result of these problems, questions and integration in the human sciences, the (comparative cultural studies) has presented itself at the levels of theory, Methodology, and application. The paper indicated, according to Steven Totosy, the differences between the state of the discipline in the west, and the state of the discipline in the east and particularly, in the Arab world with the reality of its amazing research and scientific prosperity. Thus leads to the prospects for research and encourage further application.

Keywords: Comparative Literature, Comparative Cultural Studies, crisis of comparative literature

الهوامش

(1) Stojmenska-Elzeser, Sonja. "Comparative Literature, (Comparative) Cultural Studies, Aesthetic Education, and the Humanities." *CLCWeb: Comparative Literature and Culture* 15.7 (2013): <https://doi.org/10.7771/1481-4374.2378>

(2) TÖTÖSY, Steven & VASVÁRI, Louise O. (2011): "Synopsis of the Current Situation of Comparative Humanities in the U.S. and Europe" [online article], 452ºF. Electronic journal of theory of literature and comparative literature, 5, 13-31, p.15, [Consulted on: 09/05/2017], <http://www.452f.com/index.php/en/totosy-vasvari.html>

(3) Stojmenska-Elzeser, Sonja. "Comparative Literature, (Comparative) Cultural Studies, Aesthetic Education, and the Humanities." *CLCWeb: Comparative Literature and Culture* 15.7 (2013): <https://doi.org/10.7771/1481-4374.2378>

(٤)رينيه ويليك، أزمة الأدب المقارن، في كتاب (مفاهيم نقدية)، ترجمة: د. محمد عصفور، عالم المعرفة ١١٠، الكويت، ١٩٨٧، ص٢٩٧.

(5) Bernheimer, Charles. "The Bernheimer Report 1993." in (Comparative Literature in the Age of Multiculturalism). Ed. Charles Bernheimer. Baltimore: The Johns Hopkins UP, 1995. P.39.

(6) TÖTÖSY, Steven & VASVÁRI, Louise O. (2011): "Synopsis of the Current Situation of Comparative Humanities in the U.S. and Europe" [online article], 452ºF. Electronic journal

of theory of literature and comparative literature, 5, 13-31, p.15, [Consulted on: 09/05/2017], <http://www.452f.com/index.php/en/totosy-vasvari.html>

(7) Saussy, Haun. Comparative literature in an Age of Globalization. The American Comparative Literature Association Report on the State of the Discipline, 2004. The Johns Hopkins UP. Baltimore. 2006. p.11

(٨) د. أحمد عبد العزيز، نحو نظرية جديدة للأدب المقارن: البحث عن النظرية، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٨.

(9) Weninger, Robert. Comparative Literature at a Crossroads? An Introduction, in "Comparative Critical Studies 3", 2006, xi-xix

(10) Tötösy de Zepetnek, Steven. "The New Humanities: The Intercultural, the Comparative, and the Interdisciplinary." *The Global South*, vol. 1 no. 1, 2007, pp. 59-60. *Project MUSE*, muse.jhu.edu/article/398259.

(11) See: TÖTÖSY, Steven & VASVÁRI, Louise O. (2011): "Synopsis of the Current Situation of Comparative Humanities in the U.S. and Europe" [online article], 452ºF. Electronic journal of theory of literature and comparative literature, 5, 13-31, p.24-25, [Consulted on: 09/05/2017], <http://www.452f.com/index.php/en/totosy-vasvari.html>

(12) Bernheimer, Charles. "The Bernheimer Report 1993." in (Comparative Literature in the Age of Multiculturalism). Ed. Charles Bernheimer. Baltimore: The Johns Hopkins UP, 1995. P.43.

(١٣) سوزان باسنيت، الأدب المقارن مقدمة نقدية، ترجمة: أميرة حسن نويرة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤٢-٤٣.

(14) Bernheimer, Charles. "The Bernheimer Report 1993." in (Comparative Literature in the Age of Multiculturalism). Ed. Charles Bernheimer. Baltimore: The Johns Hopkins UP, 1995. P.40.

(15) Tötösy de Zepetnek, Steven. "The New Humanities: The Intercultural, the Comparative, and the Interdisciplinary." *The Global South*, vol. 1 no. 1, 2007, pp. 52. *Project MUSE*, muse.jhu.edu/article/398259.

(16) Tötösy de Zepetnek, Steven. "From Comparative Literature Today Toward Comparative Cultural Studies." *CLCWeb: Comparative Literature and Culture* 1.3 (1999): <https://doi.org/10.7771/1481-4374.1041>

(١٧) ماري لويس برات، الأدب المقارن والمواطنة العالمية، في كتاب (العولمة والأدب المقارن) د. وحيد موافي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١٣، ص٦٩-٧٠.

(18) TÖTÖSY, Steven & VASVÁRI, Louise O. (2011): "Synopsis of the Current Situation of Comparative Humanities in the U.S. and Europe" [online article], 452ºF. Electronic journal of theory of literature and comparative literature, 5, 13-31, p.17, [Consulted on: 09/05/2017], <http://www.452f.com/index.php/en/totosy-vasvari.html>

(19) Weninger, Robert. Comparative Literature at a Crossroads? An Introduction, in "Comparative Critical Studies 3", 2006, xi-xix.

(20) Weninger, Robert. Comparative Literature at a Crossroads? An Introduction, in "Comparative Critical Studies 3", 2006, xi-xix.

(21) TÖTÖSY, Steven & VASVÁRI, Louise O. (2011): "Synopsis of the Current Situation of Comparative Humanities in the U.S. and Europe" [online article], 452ºF. Electronic journal of theory of literature and comparative literature, 5, 13-31, p.17, [Consulted on: 09/05/2017], <http://www.452f.com/index.php/en/totosy-vasvari.html>

(22) TÖTÖSY De Zepetnek, Steven & VASVÁRI, Louise O. "The Contextual Study of Literature and Culture,Globalization, and Digital Humanities", In (Companion to Comparative Literature, World Literatures, and Comparative Cultural Studies). Ed. TÖTÖSY De Zepetnek, Steven & Mukherjee, Tutun. Foundation Books, New Delhi, 2013. P.9.

المراجع باللغة العربية

- د. أحمد عبد العزيز، نحو نظرية جديدة للأدب المقارن: البحث عن النظرية، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- رينيه ويليك، أزمة الأدب المقارن، في كتاب (مفاهيم نقدية)، ترجمة: د. محمد عصفور، عالم المعرفة ١١٠، الكويت، ١٩٨٧.
- سوزان باسنيت، الأدب المقارن مقدمة نقدية، ترجمة: أميرة حسن نويرة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٩.
- د. وحيد موافي، العولمة والأدب المقارن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١٣.

المراجع باللغة الإنكليزية:

- Bernheimer, Charles. "The Bernheimer Report 1993." in (Comparative Literature in the Age of Multiculturalism). Ed. Charles Bernheimer. Baltimore: The Johns Hopkins UP, 1995.
- Saussy, Haun. Comparative literature in an Age of Globalization. The American Comparative Literature Association Report on the State of the Discipline, 2004. The Johns Hopkins UP. Baltimore. 2006.
- Stojmenska-Elzeser, Sonja. "Comparative Literature, (Comparative) Cultural Studies, Aesthetic Education, and the Humanities." *CLCWeb: Comparative Literature and Culture* 15.7 (2013): <https://doi.org/10.7771/1481-4374.2378>
- TÖTÖSY De Zepetnek, Steven & VASVÁRI, Louise O. "The Contextual Study of Literature and Culture,Globalization, and Digital Humanities", In (Companion to Comparative Literature, World Literatures, and Comparative Cultural Studies). Ed. TÖTÖSY De Zepetnek, Steven & Mukherjee, Tutun. Foundation Books, New Delhi, 2013.
- Tötösy de Zepetnek, Steven. "From Comparative Literature Today Toward Comparative Cultural Studies." *CLCWeb: Comparative Literature and Culture* 1.3 (1999): <https://doi.org/10.7771/1481-4374.1041>
- Tötösy de Zepetnek, Steven. "The New Humanities: The Intercultural, the Comparative, and the Interdisciplinary." *The Global South*, vol. 1 no. 1, 2007, *Project MUSE*, muse.jhu.edu/article/398259.
- TÖTÖSY, Steven & VASVÁRI, Louise O. (2011): "Synopsis of the Current Situation of Comparative Humanities in the U.S. and Europe" [online article], 452ºF. Electronic journal of theory of literature and comparative literature, 5, 13-31, [Consulted on: 09/05/2017], <http://www.452f.com/index.php/en/totosy-vasvari.html>
- Weninger, Robert. Comparative Literature at a Crossroads? An Introduction, in "Comparative Critical Studies 3", 2006.